وفي عصر ملوك الطوائف حين تمزقت الدولة الإسلامية بالأندلس إلى إمارات صغيرة كان ألفونسو السادس قد نجح في أن يوحد تحت إمرته إمارات استورياس، وليون (في أقصى شمال شبه الجزيرة)، وقشتالة فيما عرف بمملكة قشتالة وليون التي كانت تضم جليقية أيضاً.

وكان ألفونسو السادس يستولي على الحصون الإسلامية واحداً إثر آخر، وقد وثب ألفونسو على طليطلة عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، فأحدث بذلك فزعاً كبيراً في صفوف المسلمين، ودخلت طليطلة بذلك ضمن مملكة قشتالة وليون.

وكان من نتائج سقوط طليطلة أن تنبه المسلمون إلى أهمية الاستنجاد بالمرابطين في المغرب لإنقاذ إسبانيا من الزحف المسيحي.

* * *

العقاب «٦٠٩/١٢١٢م»:

كان ألفونسو الثاني ملك قشتالة منذ هزيمته في موقعة الإرك عام ٥٩١هـ/ ١١٩٥م قد ملكه الخوف، فاستعان بالبابوية، وأخذ يتأهب للأخذ بثأره، وتمكن من ذلك فجمع حشوداً عظيمة، وسار للقاء الموحدين.

وجمع محمد الناصر الموحدي أقصى ما استطاع جمعه من الجنود والعُدَّة، وسار للقاء ألفونسو. وكان في جيش الموحدين مَن لم يتعودوا الحربَ الضارية بين المسلمين والنصارى في الأندلس.

وكان اللقاء في العقاب وهي موضع إلى الجنوب الشرقي من قسطلونة، هزم فيه الموحدون وَحُصِدَتْ فيه زهرة مقاتلي مصمودة وأحلافهم من العرب الهلالية وبني مرين في ١٥ من صفر ٦٠٩هـ/ ١٧ من يوليو ١٢١٢م.

وتُعدّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في تاريخ الأندلس، فقد انحسرت بعدها حدوده إلى حوض نهر الوادي الكبير.

* * *

غرناطة «٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م»:

تقع غرناطة في جنوبي شبه جزيرة إيبريا إلى الشمال الشرقي من ملقا، وتعرف غرناطة في اللغة الأسبانية باسم جرانادا.

قامت في غرناطة دولة مسلمة عمّرت ثلاثة قرون ٢٦٨ سنة على وجه التحديد، في وقت كانت القواعد الإسلامية الكبرى في الأندلس قد تهاوت ولم يبق للمسلمين فيها غير مملكة غرناطة.

نجح محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر مؤسس دولة بني الأحمر في تجميع بقايا المسلمين بالأندلس، وتحصن في غرناطة على الطرف الغربي لجبال الثلج في آخر رمضان عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م، في وقت اشتد فيه ضغط الحملات المسيحية على المسلمين، وهوت فيه كثير من الممالك الإسلامية بالأندلس.

وكان محمد بن نصر بن الأحمر ذكيا نشيطاً عرف كيف يؤسس دولته شيئاً فشيئاً، وقد هاجر في عهده عدد كبير من الصناع إلى غرناطة فأصبحت مدينة كبيرة عامرة.

وكان محمد بن نصر على صلة طيبة بملك قشتالة، واستطاع أن يضم إلى مملكته أرض الجزيرة الخضراء وجبل طارق.

وابتُليت دولة بني الأحمر في آخر عهدها بالخلافات المتصلة على العرش والسلطان بين أفراد الأسرة ومنافسيهم، رغم مساندة دولة بني مرين المغربية لها للحفاظ على غرناطة.

وخلف ملوك بني نصر آثاراً تُعدّ من أعظم معالم الفن في إسبانيا، بل في أوربا، ومنها قصر الحمراء.

وأخيراً سقطت غرناطة في أيدي مملكة قشتالة و ليون عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م.

وأخلّ ملوك إسبانيا بالمعاهدة التي وقعها فرناندو و إيزابيلا والتي كانت تنصّ على أن تكون لمن يبقى من المسلمين حريتهم الدينية وأملاكهم، لكن الاضطهاد المرير بدأ بعد سنوات قليلة، وبلغ الأمر حدّ حرق المسلمين ومصادرة أموالهم. واستولى فيليب الثالث ١٠١٨-١٠٢٣هـ/ ١٦٠٩-١٦١٤م على أموال من يُقَدَّرون بخمسة ملايين مسلم، وطردهم بصورة غير إنسانية من إسبانيا، بمهلة لم تزد على ثلاثة أيام، وكثيرٌ منهم لم يصلوا إلى الشاطئ الآخر وابتلعهم اليمُّ.

وهكذا اختفى الوجود الإسلامي من إسبانيا في مطلع القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي.